المقابسات

لأبي حيان التوحيدي

محقق ومشروح

بقلم

حسن السندوبي

الطبعة الأولى

١٣٤٧ هـ — ١٩٢٩ م

جميع الحقوق محفوظة

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر

لصاحبها عبد الرحمن موسى شريف

كيف عرفت المقابسات

عرفت فيمن عرفت من الناس فى ماضى الأيام رجلا كان يبيع الكتب فى خان الخليلى يسمى « الشيخ عبد الملك الفتنى » وكان على علم ومعرفة وسعة اطلاع قلما عثرت عليها فى تاجر كتب آخر ، وكان عالى السن متقادم الميلاد ، فكان يدلنى بصدق وإخلاص على ما يلزمنى من الكتب القيمة والاسفار النافعة ؛ فلما أحكمت عرى الصداقة بيننا سألته يوما عن شأنه وعن حقيقة أمره ، فعرفت أنه هندى الأصل ، وأنه بعد أن تلقى علومه ومعارفه أقام فى الاستانة زمنا كان فيه ضمن محررى جريدة الجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق ، ثم عين قاضيا فى مكة ، فلما ضعفت قواه عن تحمل حرارة الحجاز وسمومه وفد على مصر واتخذ الاتجار بالكتب صناعة له ، ومن الحق أنه كان مرضى الطريقة ، عارفا بشؤون الحياة . قد بلا حلوها ومرها ، وتردد بين صفوها وكدرها . هذا الرجل له على فضل كبير ، فقد كان يذاكرنى فى كثير من المسائل العلمية والأدبية وينبه ذهنى إلى حقائق الأشياء ودقائق الأمور ، ويشير على بما يجب أن أقرأه من الكتب ، ويقفنى على الكيفية التى توصلنى إلى الانتفاع بها انتفاعا ناجحا مثمرا .

لقينى هذا الشيخ فى عصر يوم من أيام سنة ١٩١٣ وقال لى : قد جئتك بكتاب لا غنى لمثلك عن مثله . فقلت : وما هو ؟ قال : هو كتاب « المقابسات » لأبى حيان التوحيدى ، وهو من مطبوعات الهند ، فخذه إليك واحرص على قراءته وتفهم أغراضه ومعانيه ، فانه درة ثمينة وجوهرة نادرة المثال . فنقدته ثمنه ثم مضيت به إلى بيتى وأكببت على قراءته بشغف ، وتلوته

مرة بعد مرة ، ثم قابلت بين ما أثره هذا الكتاب فى نفسى وبين ما وصفه به الشيخ الكتبى فاذا به قد قصر فى وصفه ، ولم يبلغ فى نعته جزءاً من ألف، مما كان يجب له من نعت ووصف، فتاقت نفسى إلى إحيائه بالنشر ، ونشره بالطبع ، فوجدت الأمر عسيرا ، والخطب كبيرا ، ولاسيما والطبعة الهندية زاخرة بالاغلاط ، حافلة بالنقص والتحريف والتصحيف ، فرأيت أن أبدأ بنشره فصولا فى جريدتي « الثمرات » فكنت أعانى فى تصحيحه وتحقيق غثه من سمينه ما أعانى، وكلما فرغت من فصل نشرته ، وكان بدء ذلك في العدد الصادر منها فى ٢٠ يونيه سنة ١٩١٦ ، وبعد أن مضيت فى ذلك ، ونشرت منه عدة فصول ، أضاع الطابع منه فصلا، فأمسكت عن النشر ، وفى النفس مافيها

وبعد مدة أتيح لى العثور على نسخة منه أخرى بشكل آخر ولكنها كتلك السابقة مطبوعة فى الهند ، فتراوحت بينهما واكملت ما وجدته من نقص فى إحداهما من الأخرى ، واستعنت بالواحدة على أختها فى نفى بعض التحريف ، وضبط شىء من التصحيف ، ثم ضبطت هذه النسخة وعلقت عليها الشروح والحواشى ، ومازلت أمنحها من العناية ماهى جديرة به حتى صارت على ما أرى خير نسخة من هذا الكتاب أخرجت فى هذا العهد

وقد وصف الوزير جمال الدين القفطى المصرى هذا الكتاب فقال « هو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة فى فنون العلوم ، فانه خاض كل بحر ، وغاص كل لجة »

هذا ، وقد وجدت شباب هذا العصر لايعرفون كثيراً من أدباء العربية ، ومفاخر أهل البلاغة والبراعة فيها ، وان عرفوا أحداً من هؤلاء الاعلام فقلما عرفوا عنه إلا صورة مشوهة أكثر ما تحملهم على النفور منه ، والاستخفاف بلغته ، والرزاية عليه ، اما أبو حيان فليس يعرفه منهم

أحد ،لابل قدرأيت كثيرا من أهل الأدب وأرباب القلم والمتسمين بسمة الكتابة ، والضاربين في فنون الترسل والبلاغة من لايعرف عن أبي حيان حوجاء ولا لوجاء ، ولم يقف له من آثاره البارعة على كثير ولا قليل ، مع أنه الرجل الذى وصفه عارفو فضله من أهل الدراية والصدق من أعلام الأوائل بأنه «فيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ،ومحقق المتكلمين ، ومتكلم المحققين وإمام البلغاء ، وشيخ الصوفية » والذى كانوا يقولون عنه « إنه فرد الدنيا الذى لانظير له ذكاء وفطنة ، وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن ، حفظة ، واسع الدراية والرواية » فلما وقفت على هذه الحال الموجبة للأسف فى أدبائنا ، والحاملة على الحزن لشبابنا ، رأيت لزاما على أن أضطلع بهذا العبء وأصدر هذا الكتاب « المقابسات »بترجمة مستفيضة لهذا الرجل المغمور « أبي حيان التوحيدى » ليعرف قارىء هذا الكتاب لمن يقرأ ؟ وقد عرضت الرجل فى هذه الترجمة فى المعرض اللائق بمثله من الإبانة والايضاح وأظهرت مزاياه وصفاته على ماهى عليه ، وقدمته الى القراء على حقيقته ، والله يعلم كم أبليت فى هذا السبيل من الشدائد والصعاب لقلة المراجع ، وسوء ما كنت أعثر عليه منها ،وازدخارها بصنوف من التحريف وألوان من التصحيف ، لأنه قلما عنى بشأنه أحد من المؤلفين القدماء حتى قال ياقوت : « ولم أر أحدا من أهل العلم ذكره فى كتاب ، ولا درجه فى ضمن خطاب ، وهذا من العجب العجاب » وعند الله أحتسب ما عانيت ، ومنه أطلب الجزاء على ما صنعت .

حسن السندوبى

المصادر والمراجع

اعتمدنا فى وضع ترجمة أبى حيان على المصادر الآتية :

أخبار الحكماء	للقفطى
أعيان البيان	لنا
بغية الوعاة	للسيوطى
تجارب الامم	لمسكويه الخازن
تاريخ مختصر الدول	لابن العبرى
تيسير الوصول	للشيبانى
تاج العروس	للزبيدى
تاريخ ادب اللغة العربية	لمحمد دياب
ذيل تجارب الامم	للوزير ابى شجاع
شرح البيان والتبيين	لنا
شرح نهج البلاغة	لابن أبى الحديد
صبح الأعشى	للقلقشندى
طبقات الأطباء	لابن أبى اصيبعة
طبقات الشافعية	لابن السبكى
فوات الوفيات	لابن شاكر
الكنايات	للجرجانى والثعالبى
المختصر فى أخبار البشر	لأبى الفدا
معجم الأدباء	لياقوت
معجم البلدان	»
مسامرات الابرار	لابن العربى
معاهد التنصيص	للعباسى
مجلة المجمع العلمى العربى	كرد على
وفيات الاعيان	لابن خلكان
يتيمة الدهر	للثعالبى

وغير ذلك مطالعات شتى فى كتب التاريخ ومجاميع الادب

من كتب محمد سليم الحسني المصري الدمشقي
غفر الله له ولوالديه آمين
١٨ ذي الحجة ٩٤ هـ

أبو حيان التوحيدي

حياته، وآثاره، ومروياته

بقلم

حسن السندوبي

مؤلف كتاب « أعيان البيان » و « الشعراء الثلاثة »

وشارح « البيان والتبيين » و « المفضليات »

أبو حيان التوحيدى

أصله ونسبه ومولده ونشأته

هو على بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدى[1] اختلف المؤرخون في أصله بين أنه شيرازى أونيسابورى أو واسطى ، ومهما يكن من خلاف فلا شك في أنه فارسى الأصل ، وإلا سكتوا عن التعريف بأصله . ومن الغريب أن أحدا من مؤرخيه لم يتعرض لذكر مكان مولده ، ولا للوقت الذى ولد فيه . مع أن ابن قاضى شهبة ذكر أن أباه محمد بن العباس كان يتجر بالتمر فى بغداد . يعنى أن أسرته كانت متخذة بغداد موطنا لها وداراً لاقامتها . نعم ، لا يبعد أن أباه سافر في بعض شأنه إلى إحدى الجهات وصحب معه أمه وهناك ولدته ، ولكن الأقرب إلى التحقيق ، والأمر المتفق مع طبيعة حال التجار المتوطنين ، أن مولده كان ببغداد . نقول ذلك ونتمسك به حتى يقوم الدليل على أنه ولد بغيرها .

أما تاريخ ميلاده فقد أغفله كل من كتب عنه ، غير أنه قد حدد سنه في رسالته التى كتبها في سنة أربعمائة إلى القاضى أبى سهل على بن محمد حيث قال له « فإنى فى عشر التسعين » إذاً تعين أن ميلاده كان فى العشرة الثانية بعد الثلثمائة . وعليه حق لنا أن نقول :

ولد أبو حيان التوحيدى فى بغداد سنة ٣١٢ وبها نشأ

شيوخه وتلاميذه

لم يقتصر أبو حيان فى تلقى علومه ومعارفه على شيوخ بغداد، بل ذهب

(١) اختلف فى هذه النسبة فقال ابن قاضى شهبة : إن أباه كان يبيع نوعا من التمر العراقى فى بغداد يقال له « التوحيد » وعليه اعتمد الزبيدى صاحب التاج . وقال ابن حجر : يحتمل أن يكون إلى التوحيد الذى هو الدين ، فان المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد . ولعل رأى ابن حجر هو الارجح ، لأن أبا حيان كان يرى أصول المعتزلة

إلى البصرة منبع العلم وعش العلماء . وقد ساق ابن السبكى أسماء من تخرج بهم وفيهم البصرى والبغدادى وغيره ولم يفرق بينهم فقال :

تفقه على القاضى أبى حامد المرورذى[١] وسمع الحديث من أبى بكر الشاشى[٢] ، وأبى سعيد السيرافي[٣] ، وجعفر الخلدى . هؤلاء هم شيوخه الذين تفرد ابن السبكى بذكرهم . مع أن ياقوت وهو الذى لا يغفل في سيره عن هذا الشأن لم يذكر أحدا من هؤلاء . غير أن ابن السبكى ثقة فيما ينقل، عمدة فيما يروى

وليس هؤلاء الذين ذكرهم ابن السبكى كل شيوخ أبى حيان ؟ بل تخرج أبو حيان فى أهم ماعرف به من العلوم والفنون والآداب ،كالفلسفة،والأدب، والمنطق ، والطبيعيات ، والإلهيات ، والتصوف ، والكلام على مذهب المعتزلة ، والنحو ، واللغة ، والشعر ، والهيئة ، وسائر معارف ذلك الدهر على قوم كانوا أساتذة العصر ، ذكر منهم فى كتابه « المقابسات » طائفة وعلى

---

(١) هو القاضى أبو حامد أحمد بن بشر بن عامر البصرى المرورزى ، إمام من الأئمة الفضلاء الذين يعتد بهم فى أمر الدين،ويرجع اليهم فى أصول الشريعة وفروعها ، وكان فوق ذلك على جانب عظيم من سعة الاطلاع وغزارة العلم بفنون الآداب . وكان أبو حيان التوحيدى يقول : كان القاضى أبو حامد شديد الازورار عن الكلام والثقة فى أهله ، وإنما أولع بذكر مايقوله هذا الرجل لأنه أنبل من رأيته فى عمرى ، وكان بحرا يتدفق حفظا للسير ، وقياما بالأخبار، واستنباطا للمعانى،وثباتا على الجدل، وصبراً فى الخصام، فكان يزعم أن السير بحر الفتيا وخزانة القضاء ، وعلى قدر اطلاع الفقيه عليها يكون استنباطه . وقال أبو حيان: سمعت أبا حامد يقول : ليس ينبغى أن يحمد الانسان على شرف الاب ولا يذم عليه ، كما لا يمدح الطويل على طوله ، ولا يذم القبيح على قبحه . توفى سنة ٣٦٢ هـ

(٢) هو أبو بكر محمد بن على القفال الشاشى . فقيه محدث أصولى أديب ، وكان إماما فى شأنه . ولد بالشاش سنة ٢٩١ وتوفى سنة ٣٦٦هـ

(٣) هو أبو سعيد الحسن بن عبد الله (بهزاد) السيرافى . نحوى أديب متكلم مشهور توفى عن أربع وثمانين من عمره سنة ٣٦٨ هـ

رأسهم ذلك الفيلسوف الجليل الشأن أبو سليمان المنطقى[١]، وأبو محمد المقدسى العروضى، وأبو الفتح النوشجانى، وأبو زكريا الصيمرى، وأبو بكر القومسى، وغلام زحل[٢] وعلى بن عيسى الرمانى وغيرهم

أما تلاميذ أبى حيان الذين أخذوا عنه فقد ذكر منهم ابن السبكى: القاضى أبا حامد المار ذكره وقال: لعله أخذ عنه التصوف. ثم ذكر على ابن يوسف، ومحمد بن منصور بن حمكان، وعبد الكريم بن محمد الداودى، ونصر بن عبد العزيز المصرى الفارسى، ومحمد بن ابراهيم بن فارس الشيرازى. وقال: إن أباسعد عبد الرحمن بن مجة الأصبهانى سمع منه بشيراز سنة ٤٠٠

منزلته ومقامه

كان أبو حيان، فيما نقل ياقوت: متفننا في جميع العلوم. من النحو، واللغة، والشعر، والأدب، والفقه والكلام على رأى المعتزلة؛ وكان صوفى السمت والهيئة، وكان يتأله[٣]، والناس على ثقة من دينه. وكان جاحظيا يسلك فى تصانيفه مسلك الجاحظ، ويشتهى أن ينتظم فى سلكه. فهو شيخ الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق المتكلمين، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء ... فرد الدنيا الذى لانظير له ذكاء وفطنة، وفصاحة ومكنة،

---

(١) هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام المنطقى السجستانى. عالم كبير وفيلسوف جليل من أفاضل المضطلعين بعلوم الاوائل، كان عظيم القدر ضخم الشان، ذا جاه عريض ومقام كبير، عند عضد الدولة ووزرائه ومن فى منزلتهم، وكان بيته كعبة القصاد وموئل الوارد من الرؤساء، والحكماء، والادباء، وأهل الفضل، ولم أقف على تاريخ وفاته فيما بين يدى من مراجع والمرجح أنه مات فى حدود سنة ٣٨٠

(٢) هو أبو القاسم عبيد الله بن الحسن المعروف بغلام زحل. منجم مشهور حاذق فى فنه، وكان صديقا لأبى سليمان المنطقى ثقة عنده. توفى سنة ٣٧٦ هـ

ولم أعثر فيما بين يدى من الكتب على شىء من تواريخ باقى من ذكر من هذه العصابة الصالحة ولعلى أقف منها على ما يستحق اثباته بعد

(٣) يتأله: يتنسك

كثير التحصيل للعلوم فى كل فن ، حُفظة ، واسع الدراية والرواية . وقال ابن النجار : كان صحيح العقيدة .

وقد كان تفوقه فى العلوم ، وتبحره فى المعارف ، وانتهاجه مناهج الجاحظ ، وذهابه مذاهبه فى مزج العلوم بالآداب وعرضها فى الأساليب البليغة ، وتقريبها من الأذهان ، فى أعلى طبقات البيان ، كل ذلك كان سببا فى تقربه من الأمراء والوزراء ، ومن فى طبقتهم من الكتاب والرؤساء . ومن أجل هذا دعاه الأستاذ الرئيس أبو الفضل بن العميد[1] إليه بالرى وصحبه زمنا . وذلك أن ابن العميد كان من المولعين بالجاحظ [2] ولعا شديدا ، والمقدرين له تقديرا صحيحا ، حتى أنه كان إذا طرأ عليه أحد من منتحلى العلوم والآداب وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد ، فإن فطن لخواصها ، وتنبه الى محاسنها ، جعل ذلك مقدمة لفضله ، وعنوانا على عقله . ثم سأله عن الجاحظ ، فان وجد اثراً لمطالعة كتبه ، والاقتباس من نوره ، والاغتراف من بحره ، وبعض القيام بمسائله ، قضى له بأنه غرة شادخة فى أهل العلم والآداب ، وإن وجده ذاما لبغداد ، غفلا عما يجب أن يكون موسوما به من الانتساب إلى المعارف التى يختص بها الجاحظ ، لم ينفعه بعد ذلك شىء من المحاسن . وإذاً فلا جرم أن أبا حيان قد حاز قصب السبق لدى ابن العميد فى جاحظيته .

وقد تنازع الناس فى وصف الجاحظية بين ابن العميد وأبى حيان ،

---

(١) هو الاستاذ الرئيس أبو الفضل محمد بن العميد كان وزيرا لركن الدولة ابن بويه ، وكان من الفضل والأدب ، ومن الوقوف على العلوم والفلسفة والنجوم ، على جانب عظيم ، وكان يذهب مذهب الاعتزال وهو من أشهر كتاب العربية وبلغائها ، وكان سمحاً جواد ذا فضائل وفواضل . توفى سنة ٣٦٠ هـ

(٢) وضعنا كتابا عن الجاحظ باسم « الجاحظ وآثاره ، وشيوخ المعتزلة ومذاهبهم » وهو قيد الطبع

فكل منهما ينعت بأنه « الجاحظ الثانى » وعندى أن أبا حيان أولى بها من ابن العميد وأحق . لأن ابن العميد كان مقلدا ، وكان أبو حيان مطبوعا ، وفرق بين الطبع والتقليد

وكما صحب الرئيس ابن العميد كذلك صحب ولده أبا الفتح [١] والصاحب بن عباد [٢] ، وابن سعدان [٣] وأبا اسحق الصابى [٤] وأبا محمد المهلبى [٥] وغيرهم من الوزراء ، ومن فى حكمهم من ذوى السلطان . وكان له معهم خطوب وأحداث .

حظه من العيش

لم يكن أبو حيان ذا حظ من هناءة العيش وهدوء البال ، بل كان على كثرة ماصحب من ذوى السلطان وأصحاب النفوذ فى الدولة ، بائسا فقيرا ، رقيق الحال مشرد الفكر ، جم البلابل ، فلق الركاب ، لا يكاد يستقر في مكان إلا ويزعجه أمر الى ارتياد سواه . دائم التفكير في أهل

---

(١) هو أبو الفتح على بن أبى الفضل بن العميد ، وكان على قدم والده فى سعة الفضل والآداب والاخذ من العلوم بالنصيب الوافر . وتولى الوزارة لركن الدولة بعد أبيه ثم لمؤيد الدولة . توفى سنة ٣٦٦ هـ

(٢) هو إبو القاسم اسماعيل بن عباد الطالقانى ، كان من نوادر الدهر فضلا وأدبا ، وكان وزيرا لمؤيد الدولة بن بويه بعد أبى الفتح المارذكره ثم وزر لفخر الدولة أخيه وهو الذى وضع أبو حيان فيه وفى ابن العميد كتابه المسمى « مثالب الوزيرين » توفى سنة ٣٨٥

(٣) هو ابو عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان ، وكان وزيرا لصمصام الدولة بن عضد الدولة ببغداد . مات سنة ٣٧٥ هـ

(٤) هو أبو اسحاق ابراهيم بن هلال الصابى . الكاتب البليغ البعيد الصيت تولى ديوان الانشاء للخليفة ببغداد ولمعز الدولة بن بوية ، وكان على جانب عظيم من الفضل والأدب وهو الذى رثاه الشريف الرضى بقصيدته المشهورة . توفى سنة ٣٨٤ هـ

(٥) هو أبو محمد الحسن المعروف بالوزير المهلبى ، لأنه كان من ذرية المهلب بن أبى صفرة القائد المشهور . كان غاية فى الفضل والأدب . وزر لعز الدولة بن بويه وكان عظيم القدر عالى الهمة . توفى سنة ٣٥٢ هـ

الدنيا وما يمرح فيه الجاهلون والمنقوصون ، ومن لايساوى منهم شراك نعله ، من الجاه العريض ، والدنيا المقبلة ، والحظ المواتى ، والسلطان الكبير والنفوذ العظيم ، ومقارنة ذلك بما هو عليه من البؤس والشقاء ، وشظف العيش ، وتكفف الكريم ، واستجداء البخيل واللئيم ، على سعة فضله ، وإحاطته بما يلهج به الناس من المعارف فى وقته ؛ فتثور به ثائرة التحسر على القدر ، ويعتوره مرار الغضب على الأيام ، فيعلن الشكوى من زمانه ، ويبكى فى تصانيفه على حرمانه . انظر اليه وقد صحب الوزيرين أبا الفضل ابن العميد والصاحب أبا القاسم اسماعيل بن عباد ، زمنا فلما لم يرضياه ، ولم يبلغاه من الدنيا مناه ، تتبع عوراتهما ، وتحس سوءاتهما ، ثم أنشأ فيهما كتابا كان سببا فى نفور الناس عنه ، وتباعدهم منه ، لأن الصاحب بن عباد بما كان له من واسع السلطة والعطايا الدارّة على الادباء والعلماء وأهل الفضل ، قد سلط عليه كل ذى لسن وبيان ، فتصدوه بالاساءة من سائر نواحيه حتى أخملوا ذكره ، وغمروا اسمه ، وجعلوه طريدا شريدا لاياويه حجر ، ولايسكن إلى مدر ، وحتى قال ياقوت : ولم أر أحدا من أهل العلم ذكره فى كتاب ، ولا دمجه فى ضمن خطاب ، وهذا من العجب العجاب

على أن سوء المعاملة التى لقيها من الصاحب وهو عنده ، والتى دونها فى كتابه — الذى سنورد عليك شيئا منه — جدير بها وبما هو من نوعها أن تثير الحجر الاصم ، وأن تغضب أكثر الناس اعتصاما بالحلم ، فضلا عن مثل أبى حيان الدقيق الشعور ، القوي الاحساس . ومن الأمور الطبيعية التى لانزال نراها فى كل يوم أن من كان فى مثل ما كان عليه أبو حيان علما وفضلا ، وفى مثل حاله بؤسا وفقرا ، أغلب أن تستولى المرة السوداء عليه ، فيرى أن ما فى أيدى الناس من النعم والأموال ، وما ينعموا به من الجاه والسلطان ، قد كان ذلك من حقه دون غيره من سائر الخلق ، فاذا

راى إنسانا فى يده قليلا أو كثيرا من متاع الدنيا عده سالبا لحقه ، وحسبه مغتالا لرزقه ، حتى لوناله شيء ممـا ينعم به ذلك الانسان فلا يرى له حق الشكر عليه ، ويعتد ذلك استردادا لبعض حقه قبله ،وحصولا على صبابة من ماله عنده ، وإذا أطعمه امرؤ وأذاقه من ألوان المطاعم والمناعم مايشتهى وما لم يخطر له ببال ، قابله على إحسانه بقوله :

غير اختيار قبلت برك بى والجوع يرضى الاسود بالجيف

فاذا عاتبه على كفران النعمة وسوء العرفان بالجميل . أنشده :

ما كنت إلا كلحم ميت دعا إلى أكله اضرار

وإذا راى إنسانا فى منزلة عالية ، نظر إليه حاقدا متحسرا ، ورماه بعين الحسد منشدا :

وإذا رأيت فتى بأعلى رتبة فى شامخ من عزه المترفع
قالت لى النفس العروف بقدرها ما كان اولانى بهـذا الموضع

ما رمى به فى دينه

ومن الحق أن أبا حيان قد أوذى من الصاحب فى نفسه وشعوره وإحساسه إيذاء لايصبر عليه أحد – كما ستراه بعد – وليس لأبى حيان من سلاح يرد به عادية الظلم عن نفسه ، ويشفى به بعض ما كمن فى صدره من غل إلا الرجوع الى القلم يملى عليه مساوىء الصاحب ومخازيه التى رآها رأى العين ، والتى سمعها من ثقاته الأمناء ، كما يسطر بعض ما وقف عليه من هذا الطراز لابن العميد . وبهذا وضع عن كاهله عبأ باهظا ، ونفس عن صدره ضغطا كاد يذهب بصبره . أجل انه لم يقو، بما صنع، من التخلص من حبائل الصاحب وأشراكه ، فقد آخى له أخية ظلت فى عقبه حتى أضاعته وجعلته مثلة فى أفواه الشيوخ وكادت تمحو اسمه من صفحات الوجود . لولا أن مثله لايضيع . فقد حرض عليه من شيوخ الدين من لم يرقب فى الله إلا ولا ذمة فقالوا فيه من الكذب والبهتان ما هو منه براء ، ورموه فى دينه

بما يعلم الله أنهم فيه مفترون ، وجاء من بعدهم قوم خدعوا بما قاله فيه أولئك الأفكون من صنائع الصاحب فجاروهم فيما نبذوه به دون فحص ولا بحث ، ولا تحقيق ولا تمحيص . ومن هؤلاء الذين ملأ الصاحب أفواههم بطعامه ، وأيديهم بعطاياه ، وأرسلهم على أبي حيان ينالون منه ومن دينه ، ويمزقون عرضه وأديمه ، ابن فارس[1] . فانه لم يترو ع عن أن يكتب فى بعض كتبه عن أبي حيان قائلا : كان أبو حيان قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان ، تعرض لامور جسام من القدح فى الشريعة والقول بالتعطيل . ولقد وقف سيدنا الصاحب كافى الكفاة على بعض ما كان يدخله و يخفيه من سوء الاعتقاد ، فطلبه ليقتله فهرب والتجأ الى أعدائه ونفق عليهم بزخرفة وإفكه ، ثم عثروا منه على قبيح دخلته ، وسوء عقيدته ، وما يبطنه من الالحاد ، ويرومه فى الاسلام من الفساد ، وما يلصقه بأعلام الصحابة من القبائح ، ويضيفه الى السلف الصالح من الفضائح ، فطلبه الوزير المهلبى فاستتر منه ، ومات فى الاستتار[2] وأراح الله منه ، ولم يؤثر عنه إلا مثلبة ، أو محزبة .

براءته مما رمى به

ولا أدرى كيف يجيز إنسان لنفسه الطعن فى دين امرئ أو رميه بأقبح الشنع دون ان يقيم على ذلك حجة قاطعة او برهانا مبينا . مع ان هذا من أشد ما يعرض له مسلم فى دين الله ، ومن أكبر الكبائر عند الله . وهذه كتب التوحيدى وآثاره ليس فيها ما يشير إلى ضعف فى العقيدة ، أو ما يدخل أقل شبهة على استقامة الطريقة ، وطهارة القلب من دغل الزندقة أو الالحاد فى الدين . وقد وقع الحافظ الذهبى فيما ائتفكه ابن فارس وغر به فقال

---

(١) هو أبو الحسين أحمد بن فارس كاتب أديب ولغوى فيلسوف توفى سنة ٣٩٠ هـ

(٢) يظهر أن أبا حيان لما فارق الصاحب غاب فى سياحاة غيبة انقطعت بها أخباره عنه حتى توهم ابن فارس أنه مات

عن ابى حيان ، من غير روية ولا خوف من الله : كان عدو الله خبيثا، وكان سيء الاعتقاد . وكذلك ارتطم فى هـذه الورطة ابو الفرج بن الجوزى فقال فى تاريخه : زنادقة الاسلام ثلاثة : ابن الراوندى [1] ، وأبو حيان التوحيدى ، وأبو العلاء المعرى . قال : وأشدهم على الاسلام ابو حيان ، لأنه مجمج ولم يصرح .

فاما دعوى الذهبى فقد كفانا ابن السبكى الرد عليها وتزييفها إذ يقول : الحامل للذهبى على الوقيعة فى أبى حيان ، مع ما يبطنه من بغض الصوفية ، هذان الكلامان ، ولم يثبت عندى الى الآن من حال أبى حيان ما يوجب الوقيعة فيه ، ووقفت على كثير من كلامه فلم أجد فيه إلا ما يدل على أنه كان قوى النفس مزدريا بأهل عصره ، ولا يوجب هذا القدر أن ينال منه هذا النيل

وأما ابن الجوزى فليس لنا إلا ان نقول : وأسفاه على تلك العقول التى أعدت لخدمة الحقائق فأحالها التعصب حربا على الحقائق ، واسفاه على رجال نصبوا أنفسهم لهداية الخلق الى الطريق المستقيم ، وإبانة محاسن الاسلام ومفاخر الدين فقطعوا الطريق إلى الله وشوهوا جمال دين الله ! أرأيت كيف يتعرض ابن الجوزى لما لم يجزه له العقل ولا الدين ولا الشرائع ، فتسرب فى طوايا الضمائر ، وتولج خفايا القلوب واستخرج من سويداوات الأفئدة ما أباح له الحكم بأن أبا حيان كان أشد على الاسلام من سواه ! ولماذا ؟ لأنه لم يقل شيئا ولم يصرح بشيء ! . . . ألا ساء ما يحكمون

الحق أن أبا حيان كان من الدين والتقوى على جانب عظيم ، وهذا ابن النجار يقول فيه : كان أبو حيان فقيرا صابرا متدينا ، وكان صحيح العقيدة

(١) هو أبو الحسين أحمد بن يحى الراوندى . كاتب فيلسوف متردد الرأى كثير التنقل فى المذاهب ، يرمى بالزندقة ، ويروى أنه مات على توبة سنة ٢٩٨ على رواية ابن النجار

أسلوبه ومنهجه

مضى لنا القول فيما امتاز به أبو حيان من الاضطلاع بصنوف العلوم وانواع المعارف ، وألوان الآداب ، وكان من خصائصه احتذاء الجاحظ فى التفنن فى كل شىء ، مطبوعا على ذلك إلى الحد الأقصى ، غير أنه أولع بوضع الاحاديث والأسمار ، ووقائع التاريخ فى الصورة الروائية ، فلا يكتفى بايراد الحادث على ماعرف وتناقله الرواة ، بل يعرض له ويرسل عليه صَيِّبًا مدراراً من فائض بلاغته ، وزاخر بيانه ، فاذا هو قصة ذات وقائع وأشخاص وأبطال ، تروع إذا مثلت ، وتروق إذا قرئت ، وتملك المشاعر والقلوب إذا سمعت . ومع مايدخله عليها من أصباغ ، ومايطليها به من ألوان ، فهو لا يعدو فى النتيجة أن يمثل الحقيقة فى أصدق مظاهرها ، فهو الكاتب القصصى الماهر الذى اهدته الينا الاعصار الأول . وله طبع دافق ، وفكر سابق ، وعقل فياض بالحكمة وفصل الخطاب . ومن أخص مزاياه أنه يمزج الأدب بالحكمة ، والتصوف بالفلسفة ، ويولد من بين هذا المزيج مذهبا خاصا له لم يسبق إليه ، فأنت لا تستطيع أن تنسبه الى فرقة بعينها من الفرق الاسلامية ، ولا الى مذهب معروف من مذاهب الدين ، وإن كان ينتحل مذهب الشافعية ، أو ينحله الناس إياه ، ويميل الى عقائد المعتزلة وأصولهم . وسنعرض عليك فيما بعد طائفة صالحة من آثاره القلمية التى عثرنا عليها فى شتى المراجع .

حادث هام فى حياته

ويظهر انه أَنِفَ فى أواخر عمره فأحرق ما كان لديه من مصنفاته ، وأباد ما اعتده من مؤلفاته ، وقد أبان علة ذلك فى رسالة كتبها إلى القاضى أبى سهل على بن محمد — تراها فيما بعد . قال السيوطى : ولعل النسخ الموجودة الآن من تصانيفه كتبت عنه فى حياته وخرجت منه قبل حرقها .

وفاته

اختلف فى وفاته اختلافا بينا ، وإذا كان قد قال هو عن نفسه فى سنة ٤٠٠ : « أنه فى عشر التسعين » حق لنا أن نقول انه توفى حوالى سنة ٤٠٣ هـ

مؤلفاته

ترك أبو حيان من آثاره القلمية والفكرية مصنفات عدة ، وضعها فى شتى العلوم والمعارف والآداب التى كان يعانيها الناس الى عهده ، وقد التزم فى بسطها وايضاحها طريقة التناظر والتحاور ، وأسلوب المحاضرة والمسامرة ، مما لم يسبق إليه ، فجاءت سهلة المأخذ ، بعيدة عن التكلف والتعسف ، بريئة من اللبس والغموض ، غير أنه مع الاسف لم يصلنا منها إلا شذور ، هى كالدرر فى أجياد الحور ، واليك ماوقف عليه المؤرخون منها :

كتاب البصائر والذخائر
« المحاضرات والمناظرات
« الامتاع والمؤانسة
« المقابسات — وهو هذا الذى نقوم بتحقيقه ونشره
« الرد على ابن جنى فى شعر المتنبى
« الزلفة
« تقريظ الجاحظ
« مثالب الوزيرين — أبى الفضل بن العميد والصاحب بن عباد
« الاشارات الالهية
« رياض العارفين
« الحج العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى
رسالة فى صلات الفقهاء فى المناظرة
« فى أخبار الصوفية
« الحنين الى الاوطان

الرسالة البغدادية

« الصوفية

رسالة الصديق والصداقة

« فى ثمرات العلوم

وقد زعم الاستاذ مرجليوث أن له أيضا :

كتاب التذكرة التوحيدية

« أخبار القدماء وذخائر الحكماء

ولم يذكر ذلك مؤلف متقدم ممن عنوا بأبى حيان ولعلهما اسمين وضعهما النساخ للرسالة البغدادية ولكتاب البصائر والذخائر وكثيراً ما يكون ذلك

كلمات له عن بعض مصنفاته

الصديق والصداقه

قال أبو حيان : كان سبب إنشاء هذا الكتاب أنى ذكرت منه شيئاً لزيد بن رفاعة أبى الخير ، فنماه الى ابن سعدان ابى عبد الله سنة ٣٧١ قبل تحمله أعباء الدولة ، وتدبيره أمر الوزارة ، فقال لى ابن سعدان : قال لى عنك زيد كذا وكذا ؟ فقلت : قد كان ذلك . فقال لى : دوّن هذا الكلام وصله بصلاته مما يصح عندك عمن تقدم ، فإن حديث الصديق حلو ، ووصف الصاحب المساعد مطرب . فجمعت ما فى هذه الرسالة . وشغل عن رد القول فيها ، وبطؤت انا عن تحريرها الى أن كان من أمره ما كان ، فلما كان هذا الوقت وهو رجب سنة ٤٠٠ عثرت على المسودة وبيضتها

مثالب الوزيرين وتعليله لوضعه

وقبل أن نأتى على تعليل ابى حيان لتلبه الصاحب بن عباد نروى عنه كيف وصل إليه وماذا لقى منه لأول وهلة . قال التوحيدى :

وأما حديثى معه فإننى حين وصلت إليه قال لى : أبو من ؟ قلت : أبو حيان . فقال : بلغنى أنك تتادب ! فقلت : تأدب اهل الزمان . فقال :

أبو حيان ينصرف أولا ينصرف ؟ فقلت : إن قبله مولانا لا ينصرف . فلما سمع هذا تَنَمَّرَ وكأنه لم يعجبه ، وأقبل على واحد الى جانبه وقال له بالفارسية سفها ، على ما قيل لى[1] . ثم قال : إلزم دارنا وانسخ هذا الكتاب. فقلت : أنا سامع مطيع . ثم انى قلت لبعض الناس فى الدار مسترسلا : إنما توجهت من العراق الى هذا الباب ، وزاحمت منتجعى هذا الربيع، لأتخلص من حرفة الشؤم ، فإن الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة . فنمى إليه هذا أو بعضه ، أو على غير وجهه ، فزاده تنكرا

ولما قارب الفراغ من كتابه أخذ فى سرد مالقيه من الصاحب ، وإبانة عذره فى التشهير به وذكر مساويه فقال :

ماذنبي ، اكرمك الله ، إذا سألتُ عنه مشايخ الوقت، وأعلام العصر ، فوصفوه بما جمعت لك في هذا المكان ؟ على أنى قد سترت شيئا كثيرا من مخازيه ، إما هربا من الإطالة ، أو صيانة للقلم عن رسم الفواحش ، وبث الفضائح ، وذكر ما يسمج مسموعه ، ويكره التحدث به . سوى مافاتنى من حديثه ، فإنى فارقته سنة ٣٧٠

وما ذنبى إن ذكرت عنه مَاجَرَّعَنِيْه من مرارة الخيبة بعد الأمل ، وحملنى عليه من الاخفاق بعد الطمع ، مع الخدمة الطويلة ، والوعد المتصل ، والظن الحسن ! حتى كأنى خصصت بخساسته وحدى ، أو وجب أن أعامل بها دون غيرى ؟

قدّم الىّ نجاح الخادم — وكان ينظر فى خزانة كتبه — ثلثين مجلدة من رسائله ، وقال : يقول لك مولانا : إنسخ هـذا ، فإنه قد طُلب منه بخُراسان ؟ فقلت — بعد ارتياع — هذا طويل ، ولكن لو أذن لى لخرّجت

---

(١) وهذا دليل على أن أبا حيان لم يكن يعرف الفارسية . وهو أمر عجب